٣

هيكل.. وعبد الناصر!!

عندما برز نجم (عبد الناصر) استطاع (هيكل) بحاسته الصحافية المرهفة أن يعرف من النجم السياسي الصاعد في ثورة ١٩٥٢.. فلزم (عبد الناصر).. ونال ثقته.. وأصبح مستشاره السياسي والإعلامي.. ومدير علاقته العامة.. وكاتب خطبه.. وكاتب الميثاق الوطني في ١٩٦٢ وحافظ أسراره وأوراقه.

وخلال حقبة مليئة بالأحداث على جميع الأصعدة.. أثارها ما تزال ماثلة للعيان حتى هذه الساعة.. كان (محمد حسنين هيكل)فاعلاً بدرجة كبيرة.. ليس كصحفي لامع فقط.. وإنما كمثقف كبير صديق لرجل القرار الأول في مصر الرئيس (جمال عبد الناصر).. وكان عارفاً بأغلب أسرار الدولة ومؤسساتها وأجهزتها والحياة الخفية للشخصيات الفاعلة والنافذة فيها.

(هيكل): ناصر كان أسطورة

ودائماً ما يردد (هيكل) بأن الرئيس (جمال عبد الناصر) كان "أسطورة" لذا فإن ألسنة البعض من الكُتاب والشُعراء من أمثال صلاح عبد الصبور كانت تنعقد في حضرته.. فلا تستعيد القدرة على الكلام إلا عندما ينتهي اللقاء معه.. وهنا نختلف تماماً مع مايقوله الأستاذ.. فالمفروض أن الأديب والمبدع من كتاب وشعراء يجب أن يكون صوتهم عالٍ على الأقل في الحق.. فالمبدع لا يخاف الأسطورة ولا يخشاها لأنه في الغالب هو صانعها.. ومبتكرها.. وإنما الخوف يأتى دوماً من الديكتاتور والحاكم المستبد.. وربما يكون (هيكل) قد أخطأ في حق (عبد الناصر) بما قال.

وهو لم يغير موقفه قيد أنملة من صديقه الرئيس (جمال عبد الناصر) وظل دائم الوفاء له رغم مرور كل تلك السنوات على رحيله.. ودائماً يحاول الدفاع عنه.. وتقديم مختلف التبريرات لما يراه البعض من أخطاء ارتكبها (عبد الناصر) على كل المستويات.

ناصر و(هيكل).. والمثقفون حائرون

وفي كتاب الكاتب والأديب الكبير يوسف القعيد "(عبد الناصر) والمثقفون والثقافة"[1] وكما هو واضح من عنوان الكتاب يركز بشكل كبير على ثنائية العلاقة بين (عبد الناصر) والمثقفين والثقافة".

وفي هذا الكتاب ومن خلال حواراته مع مؤلفه حاول (محمد حسنين هيكل) تبرير سياسة الرئيس (جمال عبد الناصر) تجاه الثقافة والمثقفين بمختلف الطرق والوسائل مركزاً على بعض الجوانب الإيجابية في هذه السياسة.

لماذا رفض ناصر إعدام فاروق؟

فهو يقول مثلاً أن الرئيس (عبد الناصر) كان قارئاً جيداً وأن قراءته لقصة "مدينتين" للروائي الانجليزي الكبير تشارلز ديكينز جعلته يرفض إعدام (الملك فاروق).. ويختار إرساله إلى المنفي.. ذلك أن الدم لا يفضي إلا إلى مزيد من الدم.. كما أنه كان يتابع كل ما يكتبه المثقفون والكتاب المرموقين في مصر وخارج مصر.. وأنه كان يكن

---

(١) الكتاب عبارة عن حوار مطول أجراه مؤلف الكتاب مع هيكل.. وفيه يتحدث القعيد عن حقبة من أثرى الحقب التي عاشتها مصر خلال القرن العشرين.

وداً كبيراً لـ(توفيق الحكيم) الذي قرأ له "عودة الروح" قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ والذي سيكتب عنه بعد وفاته كتابه الشهير: "عودة الوعي".

ويذكر (محمد حسنين هيكل) أيضاً أن الرئيس (جمال عبد الناصر) هو الذي وافق على مواصلة نشر كتاب (توفيق الحكيم)"بنك القلق" مسلسلاً في "الأهرام" رغم أن المشير عامر اعتبره مسيئاً للنظام وللمخابرات المصرية تحديداً.

كما أنه عاضد ((نجيب محفوظ)) لما شن عليه شيوخ الأزهر حملة شعواء إثر نشره روايته (أولاد حارتنا).. لكن فيما بعد قال ((نجيب محفوظ)) بنفسه:

"لقد كانت أخطاء (عبد الناصر) كثيرة.. ولكن خطأه الأكبر الذي أثار غضبي عليه هو أنه أضاع فرصة تاريخية نادرة لينقل مصر نقلة حضارية هائلة.. أشبه بما حدث في اليابان بعد الحرب العالمية الثانية.. كانت كل الظروف مهيأةً له.. وكنا نأمل منه الكثير الذي نتمنى تحقيقه على يديه.. ولكنه أضاع الفرصة.. بمعاركه الكثيرة التي خاضها..

ويضيف صاحب "اولاد حارتنا" قائلاً:

"والحقيقة أن مبادئ ثورة يوليو وأهدافها إنسانية وعظيمة.. وطالما حلم بها وتمناها كل المصريين.. ولكن ما حدث هو أن الثوار لم يكونوا على مستوى الثورة ومبادئها".

ويؤكد لنا (هيكل) أن الرئيس (جمال عبد الناصر) ظل يحترم ويقدر كلا من الدكتور (طه حسين).. و(عباس محمود العقاد).. رغم أنهما تعاونا مع النظام الملكي الذي أطاح به.. وبالتالي.. فإنه يمكن القول حسب رأيه أن الفترة الناصرية لم تكن فترة صعبة بالنسبة للثقافة والمثقفين.. وأن عدداً كبيراً منهم انتجوا أهم أعمالهم خلالها..

ولعل هذا مردودٌ عليه بأنه وإن كان النظام الناصري بالفعل لم "يعاقب" عملاقي عصر النهضة.. (طه حسين) و(عباس العقاد) بسبب سابق تعاملهما مع النظام الملكي.. لكنه في المقابل تعامل معهما بجفاء واضح... بالرغم أيضاً من أنه عندما قامت ثورة يوليو كان العملاقان في أوج عطائهما.. وعاشا بعدها وقتاً طويلاً قدما خلاله أعمالاً فكرية.. لكن للأسف فرض أذيال النظام أنفسهم على الطرفين.. وتعاملوا معهما من زاوية الانتماء للنظام الذي أطاحت به الثورة.

حق الرد إجباري

والحقيقة أيضاً أن معظم أقوال (هيكل) في حواره المنشور في كتاب الأستاذ يوسف القعيد مردودٌ عليها.. وأول هذه الحقائق أن نظام الرئيس (جمال عبد الناصر) للأسف ولا ندرى لذلك سبباً لم يكن رحيماً على الإطلاق بالمثقفين.. خاصةً ممن لم يكونوا يعلنون الولاء المباشر لثورة يوليو ١٩٥٢ ففي حملة "التطهير" التي أعقبت الثورة.. التي كان الهدف الاساسي منها القضاء على رموز النظام الملكي المطاح به.. وقعت تجاوزات خطيرة لاشك أنها أضرت بالثقافة والمثقفين.. وخلال تلك الحملة خسرت مصر العديد من مثقفيها وأكاديمييها المرموقين بدعوى أنهم "رجعيون" وموالون للنظام الملكي.. وتم استبدالهم بالانتهازيين وأنصاف المثقفين.. وبأولئك الذين لا يتقنون شيئاً آخر غير أن يكونوا أبواق دعاية للنظام القائم ليحتلوا المناصب العليا في الجامعات والمؤسسات الثقافية الرسمية.

للعملاء فقط

ويذكر الراحل الدكتور (عبد الرحمن بدوي)[1] في كتابه (سيرة حياتي) أن المناصب الإدارية الرفيعة داخل الجامعات آنذاك مثل مدير جامعة.. ووكيل جامعة.. وعميد الكلية وغير ذلك صارت خلال الحقبة الناصرية وقفاً على عملاء المخابرات والخدم الطيعين للنظام.. ولم يعد هناك من يتم تعيينه في أيٍ منصب من المناصب المذكورة إلا بعد موافقة أجهزة المخابرات على ذلك.. ويرجع د. بدوي فساد التعليم داخل الجامعات وفي جميع المراحل الأخرى إلى تلك الوسائل التي انتهجها النظام الناصري.

---

(١) د. عبد الرحمن بدوي (وُلِدَ في القاهرة في ٤ فبراير ١٩١٧) وهو أحد أبرز أساتذة الفلسفة العرب في القرن العشرين وأغزرهم إنتاجا.. إذ شملت أعماله أكثر من ١٥٠ كتاباً تتوزع ما بين تحقيق وترجمة وتأليف.. ويعتبر، بعض المهتمين بالفلسفة من العرب أول فيلسوف وجودي مصري.. وذلك لشدة تأثره ببعض الفلاسفة الوجوديين الأوروبيين وعلى رأسهم الفيلسوف الألماني مارتن هايدجر... توفي في مستشفي معهد ناصر في القاهرة صباح الخميس ٢٥ يوليو ٢٠٠٢ عن عمر يقارب ٨٥ سنة.. حيث كان قد عاد من فرنسا إلى مصر قبل وفاته بأربعة أشهر بسبب إصابته بوعكة صحية حادة.. بعد سقوطه مغشيًا عليه في أحد شوارع باريس.. واتصل طبيب فرنسي بالقنصلية المصرية ليبلغهم بأن أمامه شخصًا مريضاً يقول إنه فيلسوف مصري يطلب مساعدتهم.

أمام مجمع الحكماء

وفي إحدى حلقات التجربة يقول (هيكل):

جاء لى ذات يوم (توفيق الحكيم) في مبنى الأهرام القديم.. وهو.. من هو؟!! في الحياة الثقافية والفكرية في مصر.. ودخل عندى.. وكنت أفخر وقتها بالمجموعة الكبيرة المثقفة التى عملت معى في الأهرام ولن تتكرر في تاريخ مصر.

وعندما جاء لى (توفيق الحكيم).. شعرت بوجود شيء خاصة أنه لم يحدثنى هاتفياً.. وقال لى أنا وأحد أصدقاءنا نريد أن نجلس معاً.. ولم يوافق على الجلوس في الأهرام.. واقترح أن نجلس في فندق يسمى إيزيس أمام هيلتون النيل وقتها.. وذهبت في تمام الساعة السادسة.. وجدت الدكتور (حسين فوزى) الناقد الفنى.. و(زكى نجيب محمود).. والدكتور (لويس عوض)[1] وقلت وقتها إننى أمام مجمع حكماء.. وقال لى لويس أنه حاول أن يدعو (طه حسين) للجلوس معنا لكنه اعتذر لكونه لا يخرج ليلاً.. وهم قمم كل في مجاله وليس هناك أى مناقشة في ذلك.

ثم بدأ (توفيق الحكيم) يقول نريد أن نتحدث في الموقف الحالي لأن هذا الموقف يحتاج إعادة النظر في أشياء كثيرة جداً وترك توفيق المجال ل(حسين فوزى) للشرح.. وتولى الأخير الشرح وكان منفعلاً للغاية وهو يتحدث معى.. وكان ملخص كلامه أننا الآن في حاجة لمراجعة وأننا في الوطن العربى.. وفي مصر بطبيعتنا نتجه باستمرار شمالاً عبر البحر إلى فرنسا.. وأن هذا هو مجال التقدم الحقيقى ومفتاح التقدم.. وأما موضوع العرب فكان غير مقتنع به.. وتساءل (حسين فوزى): ما الذي بيننا وبين اليهود بالضبط فلم أرد عليه ولم أقاطعه؟

وأكمل بقوله من الممكن أن نسألهم: ماذا يريدون.. وأنا كان لى رأى أقوله في كل مكان.. كل رجل مفكر له رأى ذو قيمة (دعه يطرحه) دون تردد وكل فكرة تطرأ

---

(١) لويس عوض ١٩١٥- ١٩٩٠ مفكر ومؤلف مصري ولد في المنيا عام ١٩١٥حصل على ماجستير في الأدب الإنجليزي من جامعة كامبريدج سنة ١٩٤٣ ودكتوراة في الأدب من جامعة بريستن عام ١٩٥٣ عمل أستاذاً للأدب الإنجليزي بكلية الآداب.. جامعة القاهرة وقام بالأشراف على القسم الأدبي بجريدة الجمهورية عام ١٩٥٣ من أهم كتبه هي الكتب الأكاديمية الثلاثة التي درست في الجامعة وضع الأساس النظرى للمنهج التاريخي في النقد: الأول: فن الشعر لهوراس عام ١٩٤٥الثاني: بروميثيوس طليقا لشلى عام ١٩٤٦ الثالث: في الأدب الإنجليزى الحديث.. عام ١٩٥٠ ومن أهم أعماله.. مذكرات في كتاب "أوراق العمر".. روايته الشهيرة" العنقاء" رحلة الشرق والغرب.. أقنعة الناصرية السبعة.. مصر والحرية.

لرجل سياسى أو غير سياسى ورائه تجربة لابد من مناقشتها.. لأنه لو بقينا نخاف من المناقشة سنظل في إطار المعروف والموصوف وبلا أمل.

وكان لدى استعداد أن أسمعهم دون مقاطعة أحد لكننى فوجئت بوجود (حسين فوزى) و(لويس عوض) و(نجيب محفوظ).

وحاولت التحدث في كل كلمة أثاروها قلت لهم وذكرتهم بأننا الآن في معركة وطنية.. وذكرتهم بمواقف الفرنسيين المقابلين لهم حتى في التجربة الفرنسية وحتى مع استسلام بيتان.. وذكرتهم بالمفكر الفرنسى الشهير (أندريه جيد) الذي كان في ذلك الوقت تطوع في الطيران.. وأَلَفَ فرقة.. ودخل في قتال لأنه في لحظة من اللحظات تستدعى الأوطان كل أبنائها.. وهنا خطر حقيقى.

وتحدثت عن العروبة.. وتناقشنا فيها كثيراً ولكنى كنت أرى أنه ليس هذا هو الوقت المناسب لها.. لكن هذا كان قلقاً حقيقياً من مثقفين لهم قدرهم ولهم إسهامهم في تشكيل وتكوين الفكر في هذا البلد.. وقلت لهم.. أنا مستعد أن أرتب لكم موعداً لكي تقابلوا (جمال عبد الناصر).. رفض الجميع إلا (حسين فوزى).. ولابد أن أقول أن توفيق و(لويس عوض) و((نجيب محفوظ))لم يكونوا متحمسين.. وطلبوا منى الحديث معه.. وقالوا لى إنهم يثقون في نقل أفكارهم بطريقة منطقية.

لكن كل هذا في الجبهة الداخلية ينعكس في أشياء كثيرة جداً.. وينعكس في أنه في أوقات الأزمات لكن الأفكار لا تبنى على الطريقة الحادة.. والمواقف باستمرار لها قدرة مغناطيسية لتجذب الأفكار قريبة منها.. ثم تحدد مواقف أكثر مما يريده أصحابها.. لكننا نجد أن هناك ظروفا تنشأ ومواقف يقف فيها أفراد قد يتصارعون وقد يتواجهون وقد يختلفون دون قصد من أحد لكن هناك حقائق وطبائع صراع وهناك أفكار وجاذبية مغناطيس في مواقف معينة.

نزار يريد القاهرة

هناك قضايا أكبر من أشياء كثيرة أخرى.. ونرى مثلا الشاعر (نزار قبانى)[1].. كيف يمكن أن نمنع شاعراً مثل (نزار قبانى) أن يدخل مصر بعد أن صدم بالنكسة

---

(١) نزار قباني هو الدبلوماسي.. والشاعرالسوري الشهير... ولد في ٢١ مارس ١٩٢٣ في دمشق وتوفي في٣٠ أبريل ١٩٩٨ في لندن.. ويعد أحد أبرز وأشهر الشعراء العرب وأكثرهم جدلاً في العصر الحديث .

وكتب قصيدة قد لا تعجب بعض الناس لكنه هذا شعوره الصادق.. وأجده ـ الكلام هنا ما زال لـ (هيكل) ـ يرسل لى خطابين متلاحقين في أسبوعين متتاليين يقول لى:

أخى محمد قصيدتى عملت كذا وكذا إلى آخره.. وهو رأى الحملات عليه.. وقال أنه يرى اللحظات بعيني شاعر يقدر.. والشاعر يجب ألا تطبق عليه قواعد مع أو ضد.. ولا تطبق عليه حرب وثورة أو استسلام.. والمسائل تقتضى جبهة داخلية تعرضت لصدمة والناس يجب أن تكون فاهمة.. وأجد نزار يشكو لى ويقول أنه كلام لا يعقل.

وتلك كانت مجرد سطور من صفحة العلاقة الثلاثية بين ناصر.. و(هيكل).. والمثقفين.. مجرد سطور فقط لأن الصفحة مليئة بالحقائق التى لم يسدل الستار عنها بعد.. كما أن صفحة العلاقة بين ناصر.. و(هيكل) مملوءة بالأحداث.. والمحطات الهامة.. نتوقف في الفصل القادم منها عند تجربة اختيار (هيكل) وزيراً.. لنرصد من خلالها ما أسماه (هيكل) أكبر خلافاتى مع (عبد الناصر).

❖❖❖